التواصل والمعنى*

دان سبيربير

ترجمة: عبد السلام إسماعيلي علوي

تقديم:

لقد أثبت التصنيف أن الإنسان نوع من أنواع الجنس الحيواني، وأثبت التمييز أن الإنسان حيوان عاقل باعتبار العقل، وناطق باعتبار النطق، وأنه يميز بغير ذلك لاعتبارات أخرى متعددة. وإذا كان تمييز الأنواع يقوم على اعتبار ما للنوع من خصائص لا تكون لغيره، فهل نستطيع اعتبار "التواصل" خاصية نميز بها النوع الإنساني دونما سواه؟

ستكون الإجابة بالنفي طبعا، وسنجد في النص الذي قمنا بترجمته تبريرا لذلك. ولاستباق الأفكار، سنلاحظ أن التواصل سلوك يختلف بين أن يكون حيوانيا أو يكون إنسانيا، وسنخلص إلى أن الإنسان يتميز عن الأنواع الحيوانية الباقية، ليس بقدرته على التواصل فحسب، بل بقدرته على الاستدلال أيضا. فهل سنخلص إذن إلى أن الإنسان حيوان استدلالي؟ لنكتف الآن بالسؤال، ولنرقب الإجابة في ما سيأتي.

* * *

ما التواصل؟ لا شيء أكثر بداهة من كوننا حيوانات تواصلية، في كل حياتنا الواعية وحتى في جزء من أحلامنا. إننا نتواصل بالكلام كما نتواصل بالتعابير الإشارية والكتابية، وكذا طرق الفعل وأساليب اللباس وغيرها. ثم إن التواصل ثابت بالتأكيد كذلك لدى عدد كبير من أنواع الحيوان، لكنه لا يرتبط عند أي من هذه الأنواع بعامل الزمن أو القصد، ولا يستند عند أي منها إلى ما تخوله الكفاءات كما هو الأمر عندنا. فلا نوع من هذه الأنواع الحيوانية قادر على أن يُوصل أو يُبلغ، وعن بعد،

محتويات غنية وبالغة التعقيد. إننا نتواصل دون أن ننتبه إلى الحدث الذي نقوم به، ولكن غالبا ما نفكر، وبنسبة نجاح عالية، في كل ما نستطيع إيصاله أو إبلاغه، مع اعتبار ما قد يكون من المعَوّقات والحدود طبعا. إننا نرتاد التواصل وكأننا نرتاد أمرا ممكنا جدا وغاية في البداهة ، ما لم تعترضنا أي معوقات، إلا أن العتبات التي يبدأ فيها التفكير في صعوبة التواصل ستظهر لحظة وجود المعوقات.

كيف يكون التواصل ممكنا على العموم؟ إن هذا النشاط رغم بداهته ورغم السهولة في إجرائه، يُمثل عند علماء النفس واللسانيين معا، نشاطا يصعب تحليله. إن البساطة التي تظهر في إجرائه تخفي وراءها إشكالا قد يتمثل في توضيح هذه البساطة نفسها. فما هذا الإشكال ؟ عندما أتواصل فإن فكرة ما تكون في ذهني، فإذا نجحت في إيصالها، فهذا يعني أنه في آخر عملية التواصل، ستكون الفكرة التي كانت لي هي الفكرة نفسها التي حصلت في ذهن مخاطبي، أو على الأقل، هي فكرةٌ ما قد تكون أقل دقة نوعا ما، أو قد تكون ترجمة أو نسخة تقريبية للفكرة التي كانت لي. وهذه كلها تمثل حالات لتمثُّلات ذهنية، وليست أشياء عينية، ولا هي معطيات مادية ترتبط بالمجال الحسي المشترك بين الكائنات الإنسانية. فكيف يمكن أن أنقل إليك أو أشركك في أشياء تكون في ذهني ولا أستطيع إخراجها بشكل مادي؟

هناك نظرية بسيطة للغاية توضح إمكانية التواصل، تُختصر في نموذج يمكن أن نسميه "نموذج السنن" "Modèle du code" ويتمثل في الفكرة التالية: إن ما يسمح بتقاسم الأفكار التي تظل داخل أذهاننا، يتمثل أساسا في امتلاك سنن مشترك، فما هو السنن إذن؟ إنه النسق الذي يسمح بربط المعنى، كحاصل ذهني، بالتعبير كشيء خارجي. وبعبارة أخرى، هو النسق الذي يسمح بربط "رسالة" داخلية بـ"علامة" خارجية، كالأصوات التي أحدثها أثناء الكلام. وإذا كنا نمتلك نسقا ما (مثلا: قائمة من الثنائيات "رسالة/علامة" في أبسط حالات السنن، أو "نحواً ما "حين يتعلق الأمر بالسنن المعقد) وكان هذا النسق يسمح بربط كل معنى نريد إيصاله بتعبيرٍ ما، ويسمح عكس ذلك بربط كل تعبيرٍ بمعنى، فإن أي متواصل إذن، يريد إيصال أي معنى،

يستطيع أن يختار التعبير المتعلق بهذا المعنى، ويعبر به عنه في سياق اجتماعي مشترك. ثم إن المرسل إليه الذي يشترك مع المرسل في امتلاك السنن نفسه، يستطيع أن يدرك ذلك التعبير، إذ سيجد في نسقه أو نحوه، أو في قائمته الذهنية، ما يقابله من معنى. وهكذا يتم إيصال المعنى أو الفكرة من المرسل إلى المرسل إليه.

ويمكن أن نختصر نموذج السنن هذا في ثلاث نقط:

1. إن السنن يسمح بربط كل تعبير بمعنى، وكل معنى بتعبير.
2. إن اللغات الإنسانية تمثل أسنناً.
3. إن المرسل يسنن المعنى الذي يريد إيصاله بواسطة التعبير. وإن المرسل إليه يفك هذا التسنين ويعين المعنى المقصود.

إن هذا النموذج يوضح كيف يتم التواصل. وأكثر من ذلك، يوضح كيف يتم التواصل عمليا في كل الحالات التواصلية الحيوانية عموما. فهل يمكن لهذا النموذج أن يوضح الكيفية التي يتم بها التواصل الإنساني؟ لقد مثل هذا الأمر محط اهتمام كبير منذ أرسطو إلى يوم السميائيات المعاصرة هذا. وبعد، فإن الإنسان يمتلك أغنى ما يوجد من الأسنن وهي اللغات الإنسانية. وإن هذه الأخيرة عبارة عن أسنن ولاشك في ذلك، إلا أن تطبيق نموذج السنن لا يتوقف على مجرد وجود السنن، إن هذا التطبيق لا يثبت أن اللغات عبارة عن أسنن فحسب. بل يثبت قبل كل شيء، أنها الأسنن التي تسمح بالتسنين الدقيق لكل المعاني التي يمكن إيرادها للتواصل. إن المتكلم حسب نموذج السنن، يعمل على تسنين المعنى الذي يريد إيصاله بواسطة جملة ما، والمخاطب يعمل على فك تسنين هذه الجملة ليكتشف بذلك المعنى المراد لدى المتكلم.

أي شيء في التواصل الإنساني لا يستوعبه نموذج السنن؟ ألا يفسَّر التواصل الإنساني بنموذج السنن على ما في هذا النموذج من بداهة وبساطة؟ أين يوجد الإشكال إذن؟

إن الإشكال يكمن في كون جمل اللغات الإنسانية غنية جدا بالمعاني اللسانية، وهي مع ذلك لا تعطي أبدا إلا إشارات غامضة وغير تامة للمعاني التي يريدها المتكلم،

أو كما نقول في اصطلاحنا: إن المعنى اللساني للقول لا يستنفد المعنى المراد بهذا القول.

يمكن أن نأخذ الحوار التالي، الذي يسأل فيه "بيير" "ماري" :(هل تتعشين معي؟)، فتجيب الأخيرة: (لقد سبق أن أكلت). إننا نجد المعنيين معا في الحوارات التي من هذا النوع. فما المعنى اللساني لجواب "ماري"؟ إن جملة الجواب تدل على أن المتكلمة قد سبق لها أن أكلت في زمن يحدده الملفوظ، وهي صادقة بالتأكيد، وإلا كانت قد قالت غير ذلك. وإن جملة الجواب لا تدل على أكثر من هذا، وإن دلالتها تكون صادقة، لا غير، إذا سبق للمتكلمة أن أكلت، ولو مرة واحدة في حياتها على الأقل، ولا عبرة في ذلك بنوع المأكول. إن المعنى اللساني هنا لا يعني ما تريد "ماري" قوله بهذه الجملة. إنها تريد أن تقول طبعا بأنها تعشت، وتريد أن تقول أيضا، إنه بما أنها تعشت، فإنها لا تريد أن تتعشى مع "بيير". وهذا لا يعني أنها سبق أن أكلت فحسب، بل إنه سبق أن أكلت في هذا المساء بالضبط، وهي تقول ذلك بشكل ضمني. فـ "ماري" قد أبلغت "بيير" ضمنيا أنها ترفض دعوته للعشاء. وهكذا، فإن المعنى المراد غني جدا سواء على مستوى ما يقال أو يضمر أو يسنن لسانيا.

إن المعنى اللساني مختلف جدا عن المعنى المراد لدى المتكلم. وعليه، فرغم كون اللغة تمثل السنن الذي يربط الأصوات بالمعاني اللسانية، يظل نموذج السنن غير كاف لتفسير الكيفية التي نتواصل بها بواسطة اللغة. إن تفكيك المعنى اللساني ليس إلا مظهرا من مظاهر الفهم. وهذا يتطلب أمورا إضافية تتمثل في تدخل العمليات الاستدلالية، فالمخاطب لا يكتفي بتفكيك المعنى اللساني للملفوظ، إنه إضافة إلى ذلك يطلب المعنى المراد، ويستدل عليه انطلاقا من نوعين من العناصر، وهما المعنى اللساني من جهة، والسياق من جهة ثانية.

فما المقصود بـ"الاستدلال" إذن؟ إنه كلمة تستعمل في علم النفس بالمعنى المجاور "للعقلنة"، فلماذا لا نبسط الأمر ونقول "العقلنة"؟ لأن الأمر حين يتعلق بالعقلنة فإنه يتعلق بحدث التفكير الواعي، في حين أن علم النفس المعرفي يثبت أن الاستدلال عمليات عقلية ذهنية غير أنها تحدث بطريقة عفوية آلية وغير واعية،

تُجرى في كل مستويات التلقي، إذ تستخدم في تصميم السلوك وتنسيق الحركات، وتستخدم في فهم الآخر، والفهم اللفظي على الخصوص. إن الاستدلال سيرورة تنطلق من مقدمات تؤدي إلى النتائج، وهذا ما يجعلها سيرورة عقلانية، إلا أنها مع ذلك تحدث بطريقة آلية وغير واعية. فمثلا حين تجيب "ماري" بقولها: (لقد سبق أن أكلت)، فإن المعنى اللساني لهذا الملفوظ والمحصور في دلالته على أن "ماري" قد سبق أن أكلت لا يحضر في التفكير، فالمخاطب يستدل بشكل عفوي، وعن غير وعي، على المعنى المتعلق بالسياق، الذي يدل على أن "ماري" قد سبق أن تعشت هذا المساء. وهذا يمثل معنى استدلاليا لأن "ماري" لم تقله، بل نستدل عليه انطلاقا مما قالته ومن السياق أيضا.

كيف تتم عملية الاستدلال إذن؟ هنا أقول فقط بأنه داخل عملية الفهم الاستدلالي، أو داخل العملية التي تنبني على الانتقال -بمراعاة السياق- من المعنى اللساني إلى المعنى المراد، نجد المخاطب موجها بواسطة اعتبارات الملاءمة، وهذه فكرة سبق تفصيلها في كتاب "La pertinence: Communication et cognition"، من منشورات "Minuit 1989" وقد شاركني في إنجازه "D.Wilson"، وفيه تفصيل مهم بالنسبة لدراسة عملية الفهم داخل السياق، وقد صارت هذه الدراسة موضوع التيار التداولي.

إن "بيير"، كي يفهم "ماري"، يستعمل المعنى اللساني والسياق معا كمقدمة لعملياته الاستدلالية الآلية والعفوية، فالسياق يتضمن مظاهر عديدة، ومنها على الخصوص الحدث الذي يجسده استعمال "ماري" لملفوظ الجواب عن دعوة "بيير". ثم إن السياق لا يُختصر ببساطة في مظهره المباشر، إنه يتضمن مجموعة من المعارف الخلفية، معارف عامة، معارف ثقافية، حيث إننا لا نرفض دعوة حميمية دون عذر مثلا. وعليه إن "بيير" يتعقب هذا العذر في ما صرحت به "ماري"، وله الحق في أن يتوقع بأن "ماري" ستُفهمه أنها رفضت إذا كانت تريد ذلك فعلا. وأخيرا، هناك معرفة سياقية أكثر تعميما، تتمثل في أنه يندر أن يتعشى أحد مرتين في المساء نفسه. وعليه، كي يتلاءم ملفوظ "ماري" مع سياق التلفظ، فإن "بيير" يكثف المعنى اللساني ويتممه ليفهم الملفوظ، لا على أنه يدل على أن "ماري" قد سبق أن أكلت، بل على أن "ماري"

قد سبق أن تعشت هذا المساء. ومن غير هذا سيكون الملفوظ غير ملائم. وإذا كان الملفوظ يدل في تلاؤم مع السياق على أن "ماري" قد سبق أن تعشت هذا المساء، فإنه يدل ضمنيا على أنها لا تريد أن تتعشى مع "بيير". ومن هذا يفهم "بيير" أخيرا أن "ماري" قد جعلت من المضمون المضمر في قولها سببا لعدم مشاركتها له في العشاء. وبهذا يصير جواب "ماري" ملائما للسياق.

إننا نلاحظ في مثل هذا الحوار الذي اخترناه عن قصد لبداهته، أن المخاطب يفهم، وبشكل فوري، المعنى المراد الذي يكون كثيفا جدا ومعقدا، بالنظر إلى المعنى اللساني الذي يسننه الملفوظ، حيث تتواكب في الآن نفسه عمليتا تفكيك السنن والاستدلال، وكل ذلك يتم بالسرعة نفسها التي يتم بها الكلام.

هل يجب بهذا الاعتبار أن نلغي نموذج السنن، أم يمكن أن نكتفي بمراجعته فقط؟ فبالنظر إلى أصالة نموذج السنن، بما هو من محصلات التفكير اليوناني القديم، وبالنظر إلى كونه يشكل جزءا من عاداتنا الذهنية، فإننا نميل إلى مراجعته أكثر من إلغائه. ولعل هذا يرجع إلى نزعة نظرية محافظة وتقليدية نوعا ما.

كيف يمكن مراجعة نموذج السنن إذن؟ سنحافظ على البند الأول والثاني منه، وسنقوم بتعديل البند الثالث. ويمكن أن نختصر القول بالإشارة إلى محل التعديل كما يلي:

1. إن السنن يسمح بربط كل تعبير بمعنى وكل معنى بتعبير.
2. إن اللغات الإنسانية تمثل أسنناً.
3. إن المرسل يستطيع تسنين المعنى الذي يريد إيصاله بواسطة التعبير، والمرسل إليه يستطيع تفكيك التسنين ويعين المعنى المقصود. إن المتكلم يستطيع أيضا ألّا يسنن إلا جزءا من المعنى المقصود، ويترك للمخاطب مهمة اكتشاف المظاهر غير المسننة بواسطة الاستدلال، انطلاقا من الدلالة اللسانية والسياق.

إننا نفهم بعضنا البعض جيدا وبما فيه الكفاية، ونتمتع أيضا بالقدرة الكافية لاعتماد الإيجاز والاختصار في التواصل. وهكذا سيكون دور العمليات الاستدلالية،

حسب نموذج السنن المراجَع، هو تيسير فك التسنين، وذلك باسترجاع ما فوته فعل الاختصار والإيجاز. هناك بعض السياقات التي لا نحتاج فيها إلى قول كل شيء كي نُفهم غيرنا ما نريد قوله. فـ"ماري" مثلا ليست في حاجة إلى أن تقول: (لقد سبق أن تعشيت هذا المساء، لذا فإنني لن أتعشى معك)، إنه يكفي أن تقول: (لقد سبق أن أكلت) لتُفهم "بيير" ما تريد قوله. وهكذا يكون للاستدلال وظيفة في اختصار الجهود بطريقة ما.

ومع ذلك فإن الاستراتيجية المحافِظة أو التقليدية في مراجعة نموذج السنن لن تكون كافية، إذ سيبقى النموذج معها ملتبسا التباسا معينا. وعليه فإنه، لكي يشتغل نموذج السنن المراجع، يجب أن نتممه بوصف أو تحديد العمليات الاستدلالية التي تسمح بالانتقال من المعنى اللساني والسياق إلى المعنى المقصود. فليس كافيا طبعا أن نقول بأننا نفهم بالإشارة ما دمنا أذكياء، بل يجب أن نثبت العمليات الاستدلالية التي تسمح لنا بفهم رسائل غير مسننة كليا فهما تاما. ودون تطوير المكون الاستدلالي هذا، سيظل نموذج السنن عاجزا عن الاشتغال. وعليه، من الممكن أن نكتشف أو نثبت ميكانزمات الفهم الاستدلالي، وذلك بتوضيح بعض العمليات التي تسمح بتفسير التواصل بطريقة تتعلق أساسا بالتسنين.

في الواقع، لدينا مجموعة من الأبحاث لقلب علاقة التسنين بالاستدلال. إننا نتصور نموذجا آخر يمكن أن نسميه "نموذج الاستدلال" "Modèle inférentiel"، وهو نموذج تواصلي في مقابل نموذج السنن. ووفقه يستطيع المرسل الاكتفاء بالإشارة إلى المعنى المقصود، ولا عبرة في هذه الإشارة بأن تكون لسانية ومسننة، فإننا على كل حال لا نتواصل بالكلام دونما سواه، وإنما نتواصل كذلك بالميميات والحركات والإشارات، وقد تكون هذه معهودة أو مرتجلة. وكما يمكن أن نتواصل بواسطة سلوكات مسكوكة، يمكن كذلك أن نتواصل بواسطة سلوكات جديدة مرتجلة، لا ترجع إلى أي سنن مسبق، ومع ذلك تعطي إشارات إلى ما نريد تبليغه.

ومن بين الإشارات التي تستخدم للتواصل هناك الإشارات اللسانية طبعا. فالملفوظ عبارة عن إشارة وعلى درجة عالية من الكثافة والتعقيد والتركيز، وهو مجرد

إشارة إلى المعنى المراد، ولا يكاد يمثل التسنين التام لهذا المعنى. إن ما يعطَى من إشارات تواصلية سواء كانت مسننة أو غير مسننة، وسواء كانت لسانية أو غير لسانية، تمثل إلى جانب السياق، المنطلقَ الذي ينطلق منه المرسل إليه للاستدلال على المعنى المراد. وإذا حدث أن ترك المتكلم جزءا كبيرا من العمل الاستدلالي للمخاطب، فإن ذلك لا يعزى إلى كونه تقاعس أو تكاسل عن التسنين التام. إن الأسنن الإنسانية أكثر غنى بالمقارنة مع باقي الأسنن الحيوانية، وهي مع ذلك ناقصة ولا تحافظ على المعنى نفسه بالنظر إلى الرسائل الممكنة. إن الأسنن الإنسانية غامضة دوما وغير تامة، وهي لا تسمح أبدا بالتسنين التام لما يراد قوله. وهذه على الأقل هي الفرضية التي يقوم عليها النموذج الاستدلالي للتواصل، ويمكن تلخيصها في النقط التالية:

1. إن المرسل يشير إلى المعنى الذي يريد.
2. إن المرسل إليه يستدل في كل الحالات على المعنى المراد انطلاقا من إشارات المرسل والسياق.
3. إن ملفوظا لسانيا يمثل إشارة معقدة إلى المعنى المراد، وليس تسنينا تاما له.

كيف يتمكن المرسل إليه في الحدث التواصلي إذن، من بناء المراد من القول انطلاقا من السياق وكذا الإشارات التي يقدمها المرسل؟ ما هي الكفاءات السيكولوجية المستعملة في ذلك؟

إن الفرضية التي أريد عرضها هنا هي أن الفهم الاستدلالي يصبح ممكنا باعتماد كفاءات سيكولوجية، تتمثل في القدرة على التمثل الذهني لتمثلات أخرى ذهنية، ويمكن تسميتها بالقدرة "الميتا-تمثلية" "méta- représentationnelle" حيث إن "الميتا-تمثل" هو تمثل التمثل. وهذه خاصية تميز الكائنات الإنسانية عن غيرها، فهي في الواقع كائنات سيكولوجية، إنها تنتبه بشكل قليل أو كثير إلى الحالات النفسية عند بعضها البعض، وبهذا تختلف عن باقي الأنواع الحيوانية الأخرى، وإن كان من الممكن أن نجد عند بعض القردة -كنوع حيواني قريب الشبه بالإنسان- حدا أدنى من القدرة الميتا-تمثلية، أي القدرة على معرفة الحالات النفسية لبعضها البعض، كما لو كانت هذه

الحالات قصودا أو معارف. لكن رغم وجود هذا الحد الأدنى من هذه القدرة عند هذا النوع الحيواني، وهذا أمر غير محسوم فيه، فإنها تبقى مجرد قدرة فطرية في الأصل، بالنظر إلى مثيلتها عند الإنسان. فبالنسبة لنا نحن الكائنات الإنسانية لا شيء أكثر بساطة وعفوية ورسوخا من الفعل المتمثل في تشوف بعضنا للبعض، بدافع الرغبة أو الخوف، عن افتراض أو اعتقاد، أو بدافع حالات نفسية مهما تكن.

ما هي وظيفة قدراتنا على تمثل التمثلات الذهنية؟ إن غياب القدرة الميتا-تمثلية عند الحيوانات غير الإنسانية، تجعلها لا تنظر إلى سلوكات بعضها على أنها أفعال توجهها حالات نفسية، بل تنظر إليها على أنها حركات جسدية. إن القدرة الميتا-تمثلية تسمح بإدراك السلوكات على أنها نتاج يحكمه القصد وتوجهه المعرفة، وهي تسمح أكثر من ذلك بإدراك سلوكات الآخرين والتكهن بمواقفهم. ثم إن قدرة التكهن هذه تسمح بتوفير العديد من إمكانيات التعاون أو الانتفاع أو الاحتراز في علاقاتنا بالآخر. وهكذا فإن الوظيفة الأساسية للقدرة الميتا-تمثلية تكمن في توفير إمكانيات التفاعل بين أفراد النوع. إلا أن هذه القدرة -وهذا ما أريد توضيحه- تخول إمكانية التواصل الاستدلالي، وذلك حتى في الحالات التي يتم فيها التواصل بدون أي لغة، وهذا دور تضطلع به القدرة الميتا-تمثلية، وإن لم يشكل وظيفتها الأساسية.

لنرجع خمس مائة ألف سنة إلى الوراء، ولنتخيل أن السلف في ذلك العصر جنس بدائي المعرفة، يمتلك قدرة ميتا-تمثلية، وإن لم يكن قد امتلك لغة بعد. ولنعتبر اثنين من هذا السلف في ما بينهم، "بيير" و"ماري" مثلا، حيث يراقب "بيير" "ماري" وهي تقوم بقطف ثمرة من أحدى الأشجار، ثم تشرع في أكلها فتجد أن لطعمها مرارة فتمجها. إنها تستدل من مرارة الطعم على أن نوع هذه الثمار غير صالح للأكل. وإن "بيير" بمراقبته لذلك وبامتلاكه لقدرة ميتا-تمثلية يستطيع أن يفسر سلوك "ماري" بإسناده إلى حالاتها الذهنية. إنه يستدل من خلال هذا السلوك على أن "ماري" قد راج في ذهنها أن هذه الثمار غير صالحة للأكل، وبالتالي يستنتج ذلك هو أيضا. وهكذا، إن فهم "بيير" لسلوك "ماري" يفضي به إلى الفكرة نفسها التي وصلت إليها هي عند تذوقها

لتلك الثمار. وهذا أمر لا يتعلق بالتواصل بعد، ذلك أن "ماري" أثناء ما قامت به من سلوك قد لا تكون منتبهة إلى أن "بيير" كان يراقبها. وعليه فإن الأمر لا يتعلق بأي تواصل، بل يمكن أن يتعلق بما معناه إمكانية انتقال الفكر بواسطة القدرة الميتا-تمثلية.

ولنتخيل مظهرا آخر برواية تختلف نوعا ما عما سلف، حيث تكون "ماري" على علم بأن "بيير" يراقب سلوكها، بل هي تريد أن يراقبها، وتريد ذلك بالضبط، لأنها تريد أن تؤثر في حالته الذهنية، إنها تريد أن تجعله يتصور أن تلك الثمار غير صالحة للأكل. وبشكل من الأشكال، إنها تريد أن تخبره بذلك، (أي إن لها ما يسمى بـ"قصد الإخبار")، فكيف يتحقق هذا القصد إذن؟ إن الأمر يتعلق بالحث على التصور، أي يتعلق بالطريقة التي تجعل بها "بيير" يتصور أن تلك الثمار غير صالحة للأكل.

إلى هنا ليس لدينا ما يسمح لنا بالحديث عن التواصل بالضبط، بل لدينا فقط ما يسمح لنا بالحديث عن النقل المقصود للفكر.

ما الذي يدفع "ماري" إلى التأثير في أفكار "بيير"؟ إن ذلك يتعلق بما إذا كانت تريد به خيرا أم شرا. فإذا كانت تريد به خيرا، فإنها تريد إخباره بحقيقة تلك الثمار التي يمكن أن تكون سامة، ليجتنبها. وأما إذا كانت عدوانية معه، فإن تلك الثمار قد تكون لذيذة الطعم، وهي تريد تضليله لما تمجها بتقزز، لأنها تريد أن تحتفظ بها لنفسها، فأظهرت له عكس الحقيقة لما كانت تعلم أنه يراقبها. وهكذا، إذا كانت حواسنا لا تضللنا (أي أنها لا تضللنا عن قصد أبدا، بل عما قد يلحقها من عيب أو نقص)، فإن النقل المقصود للفكر في شكله الأساسي الممثل في التواصل، يكون متعلقا بالتضليل على قدر تعلقه بالإخبار.

ولنزدْ في الرواية بعض التعقيد، حيث إن "بيير" ينتبه إلى أن "ماري" تريد له أن يراقبها، وهذا يعني أنه أدرك قصدها الإخباري. فكيف يتمكن من إدراك هذا القصد إذن؟ ربما إذا كان قد أخذ بعين الاعتبار أن "ماري" تأخذ الهيئة أو الموضع الذي يسمح له بمراقبتها جيدا، فإنه يدرك أنها تريد إثارته ليس فقط حول الثمار، بل أيضا -وربما

خاصة- حول حالاتها الذهنية إزاءه. فما هو التأثير الذي يحدث عليه أذن، لما يأخذ بعين الاعتبار أن "ماري" قد قامت بما قامت به من سلوك لأجل إثارته؟ إنه إذا كان لديه انطباع عن كونها عدوانية معه، فإنه سيدرك أنها فقط تريد أن توهمه بعكس الحقيقة الواقعية، أي أنها تريد أن توهمه بأن تلك الثمار غير صالحة للأكل، وبذلك لن يعتقد ما تريد له أن يعتقده، وسيدرك أن الثمار صالحة للأكل. وأما إن كان انطباعه عنها حميميا، فإنه سيدرك أن ما تحاول إقناعه به هو عين الحقيقة، وسيدرك أن الثمار غير صالحة للأكل فعلا.

ولنعقد الرواية أكثر، ولنفترض الآن أن "ماري" لا تريد فقط إخبار "بيير" بأن الثمار غير صالحة للأكل، وإنما تريد أيضا إخباره بـ"الفعل" الذي قامت به لأجل الإخبار. إنها لا تريد أن تكون مراقبة من طرف "بيير" فقط ، بل تريد أيضا أن يدرك بأنها تريد له أن يراقبها. ولعل ضمان تحقيق هذا الأمر يتمثل ببساطة في مجرد القيام بتبادل النظرات مثلا. ففي هذه الحالة لا يكون لـ"ماري" قصد إخبار "بيير" بأن الثمار غير صالحة للأكل فقط، بل يكون لها أيضا قصد آخر من الدرجة الثانية، ويتمثل في كونها تقصد الإخبار بالقصد الأول. (إن القصد من الدرجة الثانية يمثل ميتا-تمثلا من الدرجة الرابعة، إلا أننا سنتغاضى عن تفصيل ذلك هنا). إن في هذا المستوى، وفي هذا المستوى بالضبط، نلاحظ أن هناك شيئا إضافيا جديدا في التفاعل. ثم إن هذا الشيء الإضافي هو الذي يِؤسس للتواصل بمعنى الكلمة.

ولما تعلن "ماري" عن كونها تريد إخبار "بيير" بشيء ما، فإنها تكون غير ملزمة بتحقيق السلوك الذي سينم عن حالتها الذهنية، ولو لم يكن لديها أي قصد للتواصل. وبما أنها تُظهر هذه المرة بشكل علني أنها تقصد التأثير في حالاته الذهنية، فإنها تستطيع أن تقدم له إشارة مباشرة، لا إلى كون الثمار غير صالحة للأكل، بل إلى قصدها الإخباري المتمثل في كونها تريد إخباره بأن الثمار كذلك. فعوض أن تأخذ الثمار عمليا وتضعها في فمها ثم تمجها بعد أن تكتشف مرارتها، فإنها تستطيع أن تكتفي مثلا بالإيماء إلى هذا السلوك. وإذا افترضنا أيضا أن هذا السلف القديم كان

يمتلك بعض العلامات الصوتية، ومن بين هذه العلامات نجد عنده العلامة [آخٍ!] التي يستعملها للتعجب، فإن "ماري" إذن تستطيع أن تقدم الثمار وتقول: (آخٍ!). ثم إن عبارة التعجب هذه التي يمكن أن تستعمل لإبلاغ حالات ذهنية تختلف باختلاف السياقات، تؤول من طرف "بيير" داخل هذا السياق الخاص كإشارة من "ماري" إلى إرادة القول، أي إلى الفعل الذي تريد من خلاله إفهامه بأن الثمار غير صالحة للأكل.

إن التواصل الإنساني يحدَّد بواسطة نوعين من مستويات القصد: مستوى القصد الإخباري ومستوى القصد التواصلي. والقصد التواصلي هذا لا يمثل إلا قصدا إخباريا من درجة عليا، فهو قصد إخبار المرسل إليه بالقصد الإخباري الذي يكون لدى المرسل. إن المرسل، كي يعبر عن الفعل الذي ينتج بدافع قصد الإخبار، يحقق إمكانية نقل المعلومات عن طريق الرموز. وهذه الرموز يمكن أن تكون من نظام لغوي أو إيمائي، وقد تكون سلوكا مرتجلا أيضا، بشرط أن يكون إشارة إلى إرادة القول حقا.

إن هناك علاقة ضرورية بين القصد الإخباري والقصد التواصلي والمعنى المراد، فالمعنى المراد ليس شيئا آخر غير كونه محتوى للقصد الإخباري، وهو نفسه موضوع القصد التواصلي. إننا في السيناريوهات التي عرضنا لها آنفا -عدا السيناريو الأول حيث لم تكن "ماري" مهتمة بما إذا كان "بيير" يراقبها أم لا- نجد أن لـ"ماري" قصدا إخباريا في كونها تحمل "بيير" على أن يعرف حقيقة الثمار. وأما في السيناريو الأخير، حيث يضاف القصد التواصلي، وحيث يمكن لـ"ماري" أن تكتفي بالإيماء أو التعبير، فإننا نجد أن محتوى القصد الإخباري يمكن أن يتحدد في ما تريد "ماري" قوله، أي في المعنى المراد من التواصل.

ولنفترض مجددا أن أسلافنا "بيير" و"ماري" ومن عاصرهم كانوا يمتلكون قدرات ميتا-تمثلية كافية لتشكيل قصود تواصلية، فإنهم بهذا ليسوا في حاجة إلى أي لغة، لأن كل الإشارات -ليس اللسانية فقط- التي يمكن أن يشيروا بها إلى تلك القصود، تكون كافية للقيام بالمهمة. ومع ذلك فإن اللغة تخول بعض الامتياز طبعا في القدرة على إدراك القصد ومعرفته. إن لغةً كاللغة الإنسانية تمثل مصدرا أو معينا

غير محصور من الرموز البالغة التعقيد. وهي تسمح بإعطاء إشارات دقيقة إلى ما يراد من المعاني على اختلافها وتعقيدها.

إن التواصل الإنساني يمثل أثرا ثانويا للقدرة على تقديم حالات ذهنية أو عرضها. إن ما يميز الكائنات الإنسانية عن غيرها من الأنواع الحيوانية ليس هو اللغة كما نعتقد دوما، بل إن معيار التمييز هذا يتمثل في القدرة الميتا-تمثلية. فهذه القدرة هي التي تسمح بإمكانية التواصل الاستدلالي، وهي لا توجد عند باقي الحيوانات غير الإنسانية. إننا انطلاقا من اللحظة التي يبدأ فيها التواصل الاستدلالي، نجد أن أفراد النوع يستوفون الشروط التي تسمح بتطوير القدرات البيولوجية الضرورية لاكتساب اللغة، وتسمح في الآن نفسه بتطوير اللغة نفسها. إن اللغات الإنسانية تمثل أسنناً ذات غنى لا مثيل له، وهي في الآن نفسه غامضة وملتبسة جدا. إنها لا تمثل النموذج الأمثل للتواصل المسنن. وباختصار، إن اللغات الإنسانية تمنح التواصل الإنساني كثرة متكاثرة من الإشارات، وإنها لا تجد لنفسها وظيفة إلا عند النوع القادر على تحقيق التواصل الاستدلالي.

إن التواصل القائم على قدرة التعرف -من خلال الآخر، على كائن تحكمه حالات ذهنية- يظل فطريا إلى أن تظهر اللغات. ثم إن إمكانية التواصل الاستدلالي قد تستغني عن اللغة، غير أنه بواسطة اللغة تصبح قدرة التواصل التعبيرية ممكنة جدا ومختصرة. وعليه فإن دور اللغة يتمثل في توفير مجموعة غير محصورة من الإشارات المتعددة والمختلفة إلى المعنى المراد من التواصل، وهذا هو دور اللغة لا أقل ولا أكثر.

-*Dan Sperber, 2000, «La communication et le sens», Dans Yves Michaud (éd), Qu'est-ce que l'humain? Université de tous les savoirs, volume 2, Paris, 119-128. (http://www.dan.sperbre.com/sens.htm)

صدر حديثا

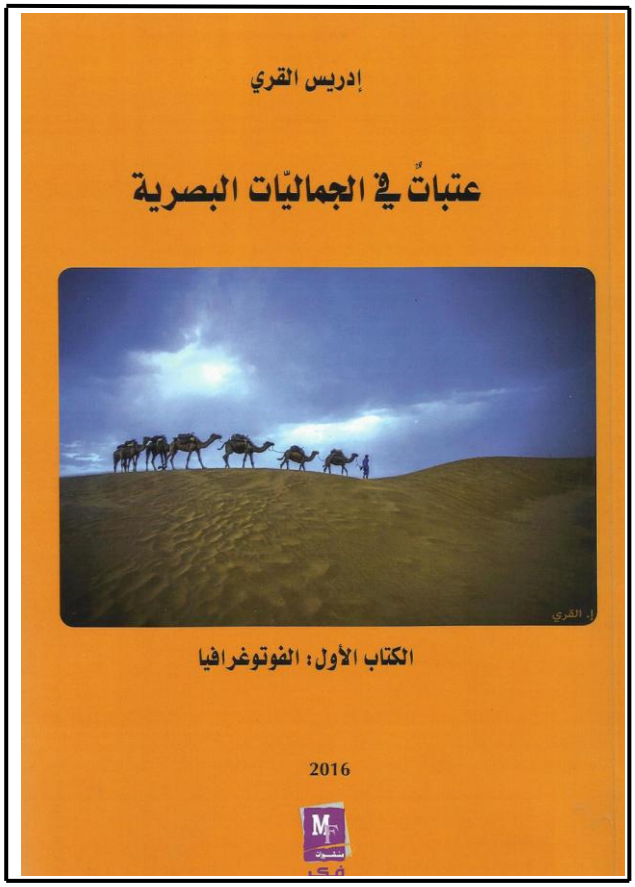
إدريس القري
عتباتٌ في الجماليّات البصرية
الكتاب الأول: الفوتوغرافيا
2016